فصل[1]

تأمَّل خلقَ السَّماء، وٱرجِع البصرَ فيها كرَّةً بعد كرَّة، كيف تراها من أعظم الآيات في عُلوِّها وارتفاعها وسَعَتها وقرارها، بحيث لا تَصْعَدُ عُلوًّا كالنَّار، ولا تهبطُ نازلةً كالأجسام الثَّقيلة، ولا عَمَدَ تحتها ولا عِلاقةَ فوقها، بل هي ممسوكةٌ[2] بقدرة الله الذي يُمْسِكُ السَّمواتِ والأرض أن تزولا.

ثمَّ تأمَّل ٱستواءها واعتدالها، فلا صَدْعَ فيها، ولا فَطْرَ ولا شَقَّ، ولا أمْتَ ولا عِوَج.

ثمَّ تأمَّل ما وُضِعَت عليه من هذا اللَّون الذي هو أحسنُ الألوان وأشدُّها موافقةً للبصر وتقويةً له؛ حتىٰ إنَّ من أصابه شيءٌ أضرَّ ببصره يؤمرُ بإدمان النَّظر إلىٰ الخُضرة وما قَرُبَ منها إلىٰ السَّواد، وقال الأطبَّاء: إنَّ من كَلَّ بصرُه فإنَّه من دوائه أن يُديمَ الاطِّلاع إلىٰ إجَّانةٍ[3] خضراءَ مملوءةٍ ماءً[4].

فتأمَّل كيف جعَل أديمَ السَّماء بهذا اللون ليُمْسِكَ الأبصارَ المتقلِّبة فيه[5] ولا يَنكأ فيها[6] بطول مباشرتها له.

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٣)، «توحيد المفضل» (٧٨).

(٢) كذا في الأصول، وتقع في كلام المتأخرين، وهي محدثة، والجادة: مُمْسَكة.

(٣) الإجَّانة: إناء.

(٤) انظر: «الحيوان» (٣/ ٣٢٣)، و«القانون» (٢/ ٢١٦)، و«المعتمد» (١/ ٢١٦، ٢٥٤). ومن مشهور الأخبار: أن النظر إلى الخضرة يزيد في البصر، ورفعه بعضهم إلى النبي ﷺ، ورفعُه باطل.

(٥) (ق): «المقبلة فيها». (ض): «المتقلبة عليه».

(٦) أي: يؤذيها. نكأ القرحة: قَشَرها قبل أن تبرأ. وفي (ت): «يتكافها». والمثبت من باقي الأصول و(ض) و«شفاء العليل» (٦٤٣). (ر): «ينكى».

هذا بعض فوائد هذا اللون، والحكمةُ فيه أضعافُ ذلك.

فصل (١)

ثمَّ تأمَّل حالَ الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتَيْ الليل والنَّهار، ولولا طلوعُهما لبطَل أمرُ العالم، وكيف كان النَّاسُ يسعَون في معايشهم(٢)، ويتصرَّفون في أمورهم، والدُّنيا مظلمةٌ عليهم؟! وكيف كانوا يتهنَّون(٣) بالعَيش مع فقد النُّور؟!

ثمَّ تأمَّل الحكمة في غروبها؛ فإنه لولا غروبها لم يكن للنَّاس هدوءٌ ولا قرار، مع فرطِ الحاجة إلىٰ السُّبات، وجموم الحواسِّ(٤)، وانبعاث القُوىٰ الباطنة وظهور سلطانها في النَّوم المُعِين(٥) علىٰ هضم الطَّعام(٦) وتنفيذ الغذاء إلىٰ الأعضاء.

ثمَّ لولا الغروبُ لكانت الأرض تَحْمىٰ بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها، حتىٰ يحترق كلُّ ما عليها من حيوانٍ ونبات.

فصارت تطلعُ وقتًا، بمنزلة السِّراج يُرْفَعُ لأهل البيت ليقضوا حوائجَهم،

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٤)، «توحيد المفضل» (٧٩).

(٢) (د، ق، ن): «معاشهم». (ت): «أمر معاشهم».

(٣) (د): «يتهنؤون». (ح): «يهتنون».

(٤) كذا في الأصول و(ر، ض). والجَمام: الراحة. واستعمال «الجموم» لهذا المعنى وقع كذلك في «الصواعق» (١٥٧٠)، و«أيمان القرآن» (٢٥٦)، و«منهاج البلغاء» لحازم (٢٩٣، ٣٢١).

(٥) (د، ق، ن): «المعينة».

(٦) (ر، ض): «وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام».

ثمَّ تغيبُ[1] عنهم مثلَ ذلك ليَقِرُّوا ويهدؤوا، وصار ضياءُ النَّهار مع ظلام الليل، وحرُّ هذا مع بَرد هذا، مع تضادِّهما، متعاونَين[2] متظاهِرَين، بهما تمامُ مصالح العالَم.

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ ونبَّه عبادَه عليه بقوله عزَّ وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

وخصَّ سبحانه النَّهارَ بذكر البصر؛ لأنه محلُّه، وفيه سلطانُ البصر وتصرُّفُه.

وخصَّ الليلَ بذكر السَّمع لأنَّ سلطانَ السَّمع يكونُ بالليل، وتُسْمَعُ[3] فيه الحيواناتُ ما لا تُسْمَعُ[4] في النَّهار؛ لأنه وقتُ هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوَّة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر.

والنَّهارُ بالعكس؛ فيه قوَّة سلطان البصر، وضعفُ سلطان السمع.

فقولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجعٌ إلىٰ قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ به، وقوله: ﴿أَفَلَا

---

(١) (ر، ض): «يغيب».

(٢) (ض): «منقادين».

(٣) (ح، ن): «ويسمع».

(٤) (ق، ح، ن): «يسمع».

تُبْصِرُونَ﴾ راجعٌ إلىٰ قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١ - ٦٢]، فذكر تعالىٰ خلقَ الليل والنَّهار، وأنهما خِلْفَة، أي: يَخْلُفُ أحدُهما الآخرَ لا يجتمعُ معه، ولو ٱجتمع معه لفاتت المصلحةُ بتعاقُبهما واختلافهما.

وهذا هو المرادُ باختلاف الليل والنَّهار؛ كونُ كلِّ واحدٍ منهما يخلُفُ الآخرَ لا يجامعُه ولا يحايِثُه[1]، بل يغشىٰ أحدُهما صاحبَه فيطلُبه حثيثًا حتىٰ يزيلَه عن سلطانه، ثمَّ يجيء الآخرُ عَقِيبَه فيطلُبه حثيثًا حتىٰ يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما يتطالبان ولا يُدرِكُ أحدُهما صاحبَه.

فصل[2]

ثمَّ تأمَّل بعد ذلك أحوالَ هـذه الـشمس في ٱنخفاضـها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول[3]، وما فيها من المصالح والحِكَم؛ إذ لـو كـان الزَّمـانُ كلُّه فصلًا واحدًا لفاتت مصالحُ[4] الفـصول الباقيـة فيـه؛ فلـو كـان صيفًا كلُّه

(١) أي: يداخله ويجامعه. انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٦٩). مشتقةٌ من «حيث» الدالة على المكان. وفي (ت، ن): «يجانبه».

(٢) «الدلائل والاعتبار» (٤)، «توحيد المفضل» (٨٠).

(٣) (ر، ض): «ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة».

(٤) (ن): «لفاتت منافع مصالح».

لفاتت مصالحُ الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت منافعُ الصَّيف، وكذلك لو كان ربيعًا كلُّه، أو خريفًا كلُّه.

ففي الشتاء تغُورُ الحرارةُ في الأجواف وبُطون الأرض والجبال[١]؛ فتتولَّدُ موادُّ الثِّمار وغيرُها، وتَبْرُد الظَّواهرُ ويَسْتكثِفُ الهواءُ فيه؛ فيحصلُ السَّحابُ والمطرُ والثَّلجُ والبَرَدُ الذي به حياةُ الأرض وأهلها، واشتدادُ أبدان الحيوان وقوَّتها، وتَزايُد القُوىٰ الطَّبيعيَّة، واستخلافُ ما حلَّله حرارةُ الصَّيف من الأبدان.

وفي الرَّبيع تتحرَّكُ الطَّبائع، وتَظهرُ الموادُّ المتولِّدةُ في الشتاء؛ فيظهرُ النَّبات، ويَتنوَّرُ[٢] الشَّجرُ بالزَّهر، ويتحرَّكُ الحيوانُ للتَّناسُل.

وفي الصَّيف يحتدمُ[٣] الهواءُ ويسخُن جدًّا؛ فتنضجُ الثِّمار، وتَنْحَلُّ[٤] فضلاتُ الأبدان والأخلاطُ التي ٱنعقَدت في الشتاء، وتغُورُ البرودةُ وتهربُ إلىٰ الأجواف؛ ولهذا تبرُد العيونُ والآبار، ولا تهضِمُ المعدةُ الطَّعامَ التي كانت تهضمُه في الشتاء من الأطعمة الغليظة[٥]؛ لأنها كانت تهضمُها بالحرارة التي سكنَت في البطون، فلمَّا جاء الصَّيفُ خرجت الحرارةُ إلىٰ ظاهر الجسد، وغارَت البرودةُ فيه.

فإذا جاء الخريفُ ٱعتدل الزَّمان، وصفا الهواءُ وبَرَد؛ فانكسَر ذلك

---

(١) (ض): «تعود الحرارة في الشجر والنبات».

(٢) (د، ق، ت): «ويتزرر». (ض): «وتنور».

(٣) في الأصول: «يحتد». والمثبت من (ر، ض) أشبه. وسيأتي (ص: ٦٣٩).

(٤) (ر، ض): «وتتحلل».

(٥) (د، ق، ت): «المغلظة».

السَّموم[1]، وجعله الله بحكمته برزخًا بين سَموم الصَّيف وبَـرْد الشتاء؛ لـئلَّا ينتقل الحيوانُ وَهْلةً واحدةً من الحرِّ الشديد إلىٰ البرد الشديد فيَجِدُ أذاه ويعظُم ضررُه[2]، فإذا ٱنتَقل إليه بتدريجٍ وترتيبٍ لم يصعُب عليه، فإنه عند كلِّ جزءٍ يستعدُّ لقبول ما هو أشدُّ منه، حتىٰ تأتي جمهرةُ البرد[3] بعد ٱستعدادٍ وقبول. حكمةً بالغةً وآيةً باهرة.

وكذلك الرَّبيعُ برزخٌ بين الشتاء والصَّيف، ينتقلُ فيه الحيوانُ من برد هذا إلىٰ حرِّ هذا بتدريجٍ وترتيب.

فتبارك الله ربُّ العالمين، وأحسنُ الخالقين.

فصل[4]

ثمَّ تأمَّل حال الشمس والقمر وما أُودِعاه من النُّور والإضاءة، وكيف جعَل لهما بروجًا ومنازلَ يَنزِلانها مرحلةً بعد مرحلة؛ لإقامة دَولة السَّنة وتمام مصالح حساب العالَم الذي لا غِنىٰ لهم في مصالحهم عنه؛ فبذلك يُعْلَمُ حسابُ الأعمار والآجال المؤجَّلة للدُّيون والإجارات والمعاملات والعِدَد وغير ذلك، فلولا حلولُ الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقُّلهما فيها منزلةً بعد منزلةٍ لم يُعْلَم شيءٌ من ذلك.

وقد نبَّه الله تعالىٰ علىٰ هذا في غير موضعٍ من كتابه، كقوله[1]: ﴿هُوَ

---

(١) وهو الريح الحارَّة.

(٢) (ح): «وتعظم مضرته».

(٣) أي: معظمُه. وفي (ق): «جهرة البرد».

(٤) «الدلائل والاعتبار» (٥)، «توحيد المفضل» (٨٠ – ٨١).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

فصل(٢)

ثمَّ تأمَّل الحكمةَ في طلوع الشمس علىٰ العالم، كيف قدَّره العزيزُ العليمُ سبحانه؛ فإنها لو كانت تطلُع في موضعٍ من السَّماء فتَقِفُ فيه ولا تَعْدُوه لما وَصَل شعاعُها إلىٰ كثيرٍ من الجهات؛ لأنَّ ظِلَّ أحد جوانب كُرة الأرض يحجُبها عن الجانب الآخر(٣)، فكان يكونُ الليلُ دائمًا سَرْمدًا علىٰ من لم تطلُع عليهم، والنَّهارُ دائمًا سَرْمدًا علىٰ من هي طالعةٌ عليهم، فيفسُد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمةُ الإلهيَّةُ والعنايةُ الربَّانيَّةُ أن قدَّر طلوعَها من أوَّل النَّهار من المشرق، فتُشْرِقُ علىٰ ما قابَلها(٤) من الأفق الغربيِّ، ثمَّ لا تزالُ تدورُ وتغشىٰ جهةً بعد جهةٍ حتىٰ تنتهي إلىٰ المغرب، فتُشرِق علىٰ ما ٱستتر عنها في أوَّل النَّهار، فيختلف عندهم الليلُ والنَّهار، فتنتظم مصالحهم.

---

(١) (د، ق): «بقوله».

(٢) «الدلائل والاعتبار» (٥)، «توحيد المفضل» (٨١).

(٣) (ر، ض): «لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها».

(٤) (ح): «على ما قاربها».